اسلوب العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان

علي رضا ميرزا محمد

مؤسسة الدراسات والبحوث الثقافية

إنّ تفسير الميزان موسوعة رصينة جامعة، تشتمل على أبحاث عميقة في القران والحديث والفلسفة والعرفان والاخلاق والتاريخ والمجتمع و غيرها، دوّنت بشكل ابتكاري واسلوب تحقيقي دراسي. و هذا التفسير القيّم بديع و رائع في الشكل والمعنى، و رعاية الموازين القرآنيّة الصحيحة، وفصل الأبحاث التفسيريّة و الروائيّة والعلميّة بعضها عن بعض، ونقد آراء بعض المفسّرين و دراستها و تحليلها، و ماشابه ذلك، إلى حدّ يمكن القول فيه: إنّه لم يؤلّف خلال تاريخ تفسير القرآن كتاب بهذه الدقّة والتنسيق والاستيال. فهذا الكتاب يختلف عن التفاسير الأخرى اختلافاً كبيراً و واضحاً في طريقة تفسيره و صيغته العلميّة؛ ذلك أنّ التفاسير القديمة والحديثة تفتقد إلى التنسيق والتنظيم الخاصين اللّذين روعيا فيه، هذا و على كلّ حال يمكن بيان خصائص تفسير الميزان و دراستها في النواحي اللاثة الاساسيّة التالية:

الف: الناحية القرانية. تقوم هذه النّاحية الّتي تعتبر في الواقع الميّزة الأساسيّة للميزان، و يميزه عن بقية التفاسير على أساس تفسير القرآن بالقرآن، اي تفسير كلّ آية بالاستشهاد بآيات أخر.

ب: الناحية الروائيّة. لقد تمت دراسة المسائل في اطار الأبحاث الروائيّة للميزان في أبعادها المختلفة و بنظرة تحليليّة؛ و أدّي الموضوع حقّه كاملاً بدون أي ايجاز مخلّ و اطناب مملّ. و كانت النتيجة حلّ الكثير من المشاكل والغموض وازالتها.

ج: الناحية العلميّة المستقلّة. كان العلّامة الطباطبائي بعد أن يفسّر آية أوعدداً من الآيات ذات الموضوع الواحد، يورد بناء على مقتضى الكلام و حسب الضرورة أبحاثاً علميّة مستقلّة في الميزان، و يبادر إلى شرح و بيان جوانب كلّ بحث في نهاية الدقّة والايجاز و يخرج بنتيجة معقولة و منطقيّة تحلّ الكثير من المشاكل العلميّة والثقافيّة.

المدخل الى معرفة «الميزان»

يعتبر تفسيرالميزان الشريف أثريراع العالم الربّاني القدير، والحكيم الصمداني، والجامع للعلوم الفلسفيّة والشرعيّة، والعارف الواصل والانسان الكامل، والمفسّر الكبير العلّامة الطباطبائي ـ رضوان اللّه تعالى عليه ـ، أحدالمصادرالأساسيّة في الثّقافة والعلوم الاسلاميّة في القرن الراهن. كما أنّ هذا الكتاب العظيم في الحقيقة موسوعة رصينة جامعة، تشتمل على أبحاث عميقة في القرآن و الحديث والفلسفة والعرفان و الأخلاق والتاريخ والمجتمع و غيرها، دوّنت بشكل ابتكاري واسلوب تحقيقي دراسي. و هذا التفسير القيّم بديع ورائع في الشكل والمعنى، و رعاية الموازين القرآنيّة الصحيحة، و فصل الأبحاث التفسيريّة والروائيّة والعلميّة بعضها عن بعض، و نقد آراء بعض المفسّرين و دراستها و تحليلها، و ماشابه ذلك، إلى حدّ يمكن القول فيه: إنّه لم يؤلّف خلال تاريخ تفسير القرآن كتاب بهذه الدقّة والتنسيق والاستيال. و هويتباين تماماً عن التفاسير الأخرى ـ القديمة منها و الحديثة ـ تلك التفاسيرالتي كان يهتمّ

مؤلّفوها غالباً إمّا باتّجاه واحد أواتّجاهات محدودة. فيضيّعون بالتّالي الكثير من الحقائق. أو أنّهم لايراعون في دراستهم و أبحاثهم دقّة النظر الكافية، و والاهتمام العلمي الضروري. أو أنّهم يؤلّفون كتاباً هوأقرب إلى الترجمة منه إلى التفسير. أوقد يميل بعضهم ـ عمداً أوسهواً ـ من التفسير إلى التأويل و يحمّلون آراء هم العلميّة على مضامين الآيات. ولاريب في أنّ هذه الطريقة الأخيرة قدشاعت بعد اتّساع رقعة الفتوحات الاسلاميّة اعتماداً على الأبحاث الكلاميّة والفلسفيّة والعرفانيّة والروائيّة و غيرها في مجال تفسيرالقرآن، و انتهت إلى اختلافات مذهبيّة شديدة و بالتالي أدّت إلى الاختلاف في طرق التفسير. و هوما أشارإليه الشيخ الطوسي ـ قُدّس سرّه ـ في مقدّمة تفسير التبيان:

«فوجدت من شرع في تفسيرالقرآن من علماء الأمّة، بين مطيل في جميع معانيه، واستيعاب ماقيل فيه من فنونه ـ كالطبري و غيره ـ و بين مقصّر اقتصرعلى ذكر غريبه، و معاني ألفاظه. و سلك الباقون المتوسّطون في ذلك مسلك ماقويت فيه مُنّتهم(*) و تركوا مالامعرفة لهم به فإنّ الزجّاج والفرّاء و من اشبههما من النحويين، أفرغوا و سعهم فيما يتعلّق بالاعراب والتصريف. و مفضّل بن سلمة و غيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الالفاظ. والمتكلّمين ـ كأبي علي الجبّائي و غيره ـ صرفوا همّتهم إلى مايتعلّق بالمعاني الكلاميّة. و منهم من أضاف إلى ذلك، الكلام في فنون علمه، فأدخل فيه مالايليق به، من بسط فروع الفقه، واختلاف الفقهاء ـ كالبلخي و غيره».[1]

و ذهب العلّامة الطباطبائي إلى أبعد من ذلك. فبعد دراسة جميع أساليب التفسير و نقدها، استنتج قائلاً:

«و أنت بالتأمّل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد: أنّ الجميع مشتركة في نقص و بئس النقص، و هو تحميل ما انتجه الأبحاث العلميّة أو الفلسفيّة من خارج على مداليل الآيات، فتبدّل به التفسير تطبيقاً و سُمي به التطبيق تفسيراً، و صارت بذلك حقائق من القرآن مجازات، و تنزيل عدّة من الآيات تأويلات».[2]

إنّ و قوف الأستاذ العلّامة الكامل على نقائص أسلوب المفسرين قبله، و اهتمامه برعاية الدقائق الضروريّة في تفسير كتاب اللّه بشكل صحيح، و تطلّعه إلى هدف سام، هوالذي أبدع مثل هذا الأثرالطريف و التفسير الشريف. هذا التفسير الذي يمكن البحث عن أسباب تباينه عن التفاسير الأخرى في أبعاد مبدعه فقط، و بعبارة أوضح، إنّ سبب هذا التباين يكمن في سموّ النبوغ الفكري و القدرة العلميّة والعمليّة والشخصيّة الفذة التي يتمتّع بها ذلك الأستاذ. ذلك أنّه لم يكن ذاباع طويل في العلوم الفلسفيّة والشرعيّة فقط بل كان أيضاً من أصحاب الكشف والشهود والكمال بين أصحاب الكرامات في وادي المعرفة. و بعبارة أخرى: كان تبحّر هذا العلّامة في الفلسفة والتفسير والفقه والأصول والحديث والآداب والرياضيّات والنجوم والعلوم النادرة و غيرها من جهة، وطيّه المراتب العرفانيّة العالية و نيله الكمالات المعنويّة و تخلّقه بالأخلاق الإلهيّة من جهة أخرى، دليلاً على إحاطة هذا الآية الإلهية العظمى في العلم والعمل؛ أو كماقال أحد الذين جنوا من رياض علمه و فضله:

«كان آية اللّه العلّامة الطباطبائي يجمع بين العلم و العمل علاوة على استيعابه للعلوم؛ ذلك العمل الذي ينبع من فيض النفس ويتحقق هذا على أساس طهارة الباطن؛كان جامعاً بين العلوم والكمالات الفكريّة والوجدانيّات والأذواق القلبيّة و بين الكمالات العمليّه و البدنيّة. اي إنّه كان رجل حقّ تتحقّق كُلّ ذرّات وجوده بالحقّ».[3]

و من الطبيعي أن تكون إحدى ثمرات وجود عالم كبير كهذا ماقاله أحد مريديه فيه مكرماً و معظماً:

«إنّ كلّ آثار ذلك العالم الجليل علم و فكر؛ كلّها حقيقة و معرفة؛ كلّها بحث و تحقيق؛ كلّها عشق و عقل؛ كلّها قرآن وحديث».[4]

و على كلّ حال فإنّ تبلور العلم و العمل، والفكر والإخلاص والعقل و الإشراق في وجود هذا الرجل العظيم الحكيم، كوّن منه شخصيّة فذّة نادرة، فارتضاها تماماً أهل الفضل والبصيرة كميزان للعلم و الكمال. و من البديهي ألّانتوقّع من قطرات يراع مثل هذا الحكيم الزاهدأثراً غير تفسيرالميزان القيّم في ميدان العلوم الاسلاميّة و قد حصر هذا العالم نشاطه سعياً منه خلف هذا الهدف الالهي السامي، في مجالي التفسير والفلسفة، رغم تبحّره في الفقه والأصول والحديث والعلوم الاسلاميّة الأخرى أداء منه لتكليف شرعي. يقول الاستاذ نفسه في هذا الشأن:

«حينما قدمت من تبريز إلى قم، قمت بدراسة مايحتاج إليه المجتمع الاسلامي، والوضع الذي في حوزة قم، و وصلت

بعدالبحث الدقيق إلي أنّ الحوزة بحاجة شديدة إلى تفسير للقرآن، لتطّلع على المعاني السامية في أكثرالنصوص الاسلاميّة أصالة و أعظم أمانة الهيّة والتعريف بها. كماكانت الحاجة ماسة من جهة أخرى إلى البحوث العقليّة والفلسفيّة بسبب انتشار الشكوك الإلحاديّة لتستطيع الحوزة إرساء القواعد الفكريّة والعقائديّة الاسلاميّة بالبراهين العقليّة والدفاع عن آرائها. و لذلك رأيت من واجبي الشرعي أن أسعى لتوفير هاتين الحاجتين».[٥]

لقد كان تدريس التفسير والفلسفة بذلك الدافع الالهي بالنسبة للعلّامة ذا أهميّة إلى الحدّالذي دعاه لإحلالها محلّ درسي الفقه والاصول. يقول في بيان سبب هذا العمل:

«يوجد في حوزه قم العلميّة والحمد للّه أشخاص يدرسون الفقه والأصول، ولكن لايوجد ما يكفي من الأساتذة للفلسفة والتفسير، و حوزة قم العلميّة والمجتمع الاسلامي بحاجة شديدة إلى التفسير و الفلسفة، و لذلك فإنّ ممارستي لهذين العلمين أنفع للاسلام».[٦]

لقد بدأ العلّامة الطباطبائي تدريسه لتفسيرالقرآن في الحوزة تحدوه هذه النظرة الالهيّة والأفكار السامية، و تابع تدريسه سنين طوالاً إلى أن تمّ التمهيد لتأليف تفسير الميزان بعد دراسات و تقصّيات طويلة، هذا التفسيرالذي استمدّ مادّته من اندماج العلم بالعمل، والعشق بالعقل، والالتزام بالاخلاص. حتّى أصبح من الواجب أن يُدعى بحقّ «أمّ الكتاب» بين مصنّفات و مؤلّفات ذلك العلّامة الحكيم.

ميّزات تفسير الميزان

إنّ الميّزات و الخصائص التي يتمتّع بها تفسيرالميزان الشريف أوسع من أن تدرس دراسة وافية في مثل هذه المقالة. ولكن اعتماداً على قول «مالا يدرك كلّه لايترك كلّه» لابدّ من دراسة بعض الجوانب فيه. فهذا الكتاب يختلف عن التفاسيرالأخرى اختلافاً كبيراً و واضحاً في طريقة تفسيره و صيغته العلميّة. ذلك أنّ التفاسير القديمة والحديثة تفتقد إلى التنسيق والتنظيم الخاصين اللذين روعيا فيه. و على كلّ حال يمكن بيان خصائص تفسيرالميزان و دراستها في النواحي الثلاثة الاساسيّة التالية:

الف: الناحية القرآنية. تقوم هذه الناحية التي تعتبر في الواقع الميّزه الأساسيّة للميزان. و يميزه عن بقية التفاسير على أساس تفسيرالقرآن بالقرآن، اي تفسير كلّ آية بالاستشهاد بآيات أخر و بعميلة التدقيق والتمحيص يبادر لتبيان مدلول جانب من القرآن بتناوله جانب آخرمنه. و هوأسلوب بديع مستمد ممّاورد بصراحة في القرآن الكريم:

«... ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شئ...».[٧]

«... هدى للنّاس و بيّنات من الهدى والفرقان...».[٨]

«... و أنزلنا إليك نوراً مبيناً».[٩]

كما أنّ هذا الأسلوب يستلهم في تفسير الآيات الالهيّة من أخبار و أحاديث اهل بيت الرسالة والولاية. حيث نجد عندالرجوع إلى أبحاث الميزان الروائيّة نماذج كثيرة لها، علاوة على أنّ في نصوص الحديث شواهد تؤيّد الأسلوب المذكور، فقد روي عن المعصومين(ع) حول ذلك:

الرسول الاكرم(ص): «... إنّ القرآن ليصدّق بعضه بعضاً...».[١٠]

الامام علي(ع): «كتاب اللّه تبصرون به،وتنطقون به، وتسمعون به،و ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض».[١١]

ففي الناحية القرآنيّة للميزان لم يتطرّق البحث الاّ لتفسيرالقرآن بالقرآن، و تبعاً لمايراه العلّامة، فقدتم تجنب أي نوع من الاستدلال الفلسفي، والنظريات العلمية و المكاشفات العرفانية في تفسير الآيات. أمّا بعض الابحاث الفرعية الاولية التي وردت بالضرورة في هذا القسم لاتخرج عن أمرين: إمّا أنّها ملاحظات أدبية تعتبر من الضروريات الأولية لفهم الأسلوب العربي للقرآن، أو مقدمات بديهية عقلية و مبادئ علمية لايختلف فيها اثنان.[١٢] و كما يبدو، ليس هذا الأمرمما لايتنافى مع أسلوب التفسيرالذي نبحث فقط بل يعتبر من الضروريات الأولية في التفسير باعتبارها مقدمة لدرك مفاد القرآن.

و يعتمدالبحث في المقدمات المذكورة هذه في السياق العام لدراسة الناحية القرآنية للميزان على أسلوب خاص، و ذلك أن تذكر آية أوعدة آيات ذات موضوع واحد ثم يتم الحديث عن ذلك الموضوع تحت عنوان «بيان الآية أوالآيات» بشكل مجمل بحيث يستنبط من مجموعها في الواقع «المعجم الموضوعي للقرآن» ثم تذكر كل آية تبعاً لتسلسلها القرآني، و تتم دراسة المسائل اللغوية والبلاغية ـ الأدبية المتعلقة بألفاظ الآيات وفق

الضرورة، بحيث تدورغالباً حول المعاني، واشتقاق المفردات، و اعراب الكلمات، والمجازات والكنايات والاستعارات و انواع التشبيه والتمثيل و غيرها. وليس لهذه المسائل أهمية كبرى باعتبارها ضرورية كمقدمة للتفسير فقط بل ذات أهمية أيضاً بالنظر للبلاغة وصورالقرآن البيانية.

ويبدأ بعد هذه المقدمات البحث الأساسي و هو تفسير القرآن بالقرآن واز الة الغموض الذي في كلّ آية بالاعتماد على الآيات البينات الأخر. و يتابع المؤلّف التفسير بأسلوب دقيق بالاستناد إلى كتاب اللّه وأخبار المعصومين ـ عليهم السلام ـ في نهج منطقي دون أن يحدث أي تدخل أو تصرف في مدلول الآيات أو التفسير بناء على ماجاء في الحديث النبوي «من فسّر القرآن برأيه و أصاب الحقّ فقد أخطأ».[١٣]

و مما تجدرالإشارة إليه أنّ طريقة تفسيرالقرآن بالقرآن وإنْ كانت متبعة إلى حدّ ما قبل الميزان وانتشرت بعده، إلاّ أنّ الميزان يظـل التفسير الممتاز الوحيد الذي لامثيل له ولامنازع. وليس للتفاسيرالسابقة واللاحقة أنْ تبلغ شأوه و تطرق ساحة عظمته. ولايعود سبب هذا التفضيل و هذه الميزة إلى تفسير آية بالنظر إلى مضامين عدد من الآيات المشابهة أو استنباط حكم من الأحكام الفقهية والأصولية و غيرها بإعادة الآيات العامة إلى الخاصة أو المطلقة إلى المقيدة. و إنّما مزية الميزان في أنّ فيه التفسير الظاهري والباطني من جهة والتأويل من جهة أخرى ـ ذلك التأويل الذي هو من أصل الحقائق الخارجية لاالمفاهيم والمعاني. بحث روعي التشابه بين الظواهرالقرآنية، والتنسيق بين بواطن الآيات والتماثل في التأويل مع انسجام تام بينها. و من الطبيعي أن يكون مثل هذا التفسيروالتأويل من ابداع فكر خلاّق لمفسر كالعلاّمة الطباطبائي الذي استطاع بما وفق إليه من تهذيب في النفس، وانشراح في الصدر و رسوخ في العلم أن يتدبر في القرآن بقلب وهّاج، و أن يكشف عن مفاتيح الآيات ليفتح بها أبواب خزائن التأويل، و يصل إلى المعاني العميقة في القرآن، و ينيرالدرب أمام المتطلعين للوصول إلى العلوم القرآنية الأصيلة. و بناء على هذا فلابدّ من أن يعتبر الميزان بمثل هذه الخصائص البارزة تفسيراً ممتازاً لانظير له في تاريخ تفسيرالقرآن. أوكما قال العلاّمة المطهري في ذلك:

«لم يدوّن تفسير الميزان كلّه بالفكر، واعتقدبأنّ أكثر موضوعاته من الالهامات الغيبية.[١٤] استطيع الإدّعاء بأنّه أفضل تفسير دوّن لدى الشيعة والسنّة منذ صدرالاسلام إلى يومنا هذا».[١٥]

و يقول العلامة السيد محمد حسين الحسيني الطهراني أيضاً في هذا الشأن:

«إنّ هذا التفسير فريدمن نوعه في عرضه للمسائل الدقيقة والحساسة والحيلولة دون مغالطة المعاندين، و من حيث انه شامل و جامع حتّى ليمكن القول بحق: لم يدوّن تفسير مثله منذصدرالاسلام».[١٦]

ولابدّ من الإشارة إلى أنّه وردت أحيانا في خلال التفسير أبحاث قرآنية بشكل جامع أوعلى انفراد تعتبر بحدّ ذاتها أهمية من الناحية الموضوعية. كما ذكرت أحياناً مختلف الآراء التفسيرية في المواضع التي لم يتفق المفسرون في وجهات النظر حول تفسير آية من الآيات و تم نقدها و شرحها و دراستها بدقة. و كان أسلوب العلاّمة في هذه المرحلة أن يذكر في البداية آراء أشهرالمفسرين كالزمخشري والفخر الـرازي والآلوسي و صاحب المنارثم ينقدها و يشرحها بأسلوب استدلالي يرتكز على مدلول الآيات. و ينهي البحث بابداء رأيه الصائب الذي يكشف عن الحقيقة ويزيل الغموض.

ب . **الناحية الروائية**. إنّ الأسلوب الصحيح الذي نهجه العلاّمة الطباطبائي في التفسير الروائي يختصّ به وحده لما فيه من دقّة وشمول علمي، و هو يختلف عن أسلوب المفسرين الآخرين الذين غالباً ما يقتصرون في التفاسير المأثورة و غيرالمأثورة بنقل روايات عن الرسـول الاكرم والائمـة المعصومين ـ صلوات اللّه عليهم أجمعين ـ فيختارون المصادر الروائية و ينقلون الروايات منها تبعاً لاتجاهاتهم الفكرية ـ المذهبية و تعصبهم لفرقهم. و بالتالي يوردون في تفاسيرهم الكثير من الأحاديث و الروايات الضعيفة و غيرالموثوقة ولاالمسندة بدون أي بحث تحليلي. أمّا الأحاديث والروايات المتعلقة بالآيات في تفسيرالميزان الشريف فقد نقلت من الجوامع الحديثية والكتب المعتبرة لدى علماء الفريقين، و تم في بعض الحالات نقد الروايات التي لاتتفق و نصوص القرآن، ودراستها دراسة دقيقة و مستدلة و جامعة. و بذلك تتميز الأحاديث الصحيحة والحسنة من الضعيفة و يرد الكثير من الاسرائيليات

والمسيحيات والمجوسيات التي لايمكن أن يطلق عليها سوى اسم أكاذيب أخذت طريقها إلى الأحاديث الصحيحة و تلقي جانباً و ذلك بالاعتماد على الأدلة والبراهين. و علاوة على ذلك فقد عينت مواضع الجري والتطبيق والتأويل بدقة في خلال الأبحاث الروائية، كما شرحت بعض الروايات و وضع لها بعض التعليقات الضرورية والمفيدة، بحيث يساعدكلّ ذلك على بيان مدلول الآيات مساعدة كبيرة.

والجدير بالذكر أنّ العلّامة يملك قدرة كبيرة على تأويل الأحاديث و اعادتها إلى الآيات في القرآن بما يحيط به من ألطاف الهية، بالاضافة إلى وقوفه على تأويل الآيات والتنسيق بين ظواهرالقرآن و بواطنه. و هو ما أشارإليه آية اللّه الگيلاني من خلال شرحه لأسلوب التفسير في الميزان قائلاً:

«لقدمنحه اللّه خصيصة عظيمة في تأويل الأحاديث. هذه الخصيصة التي هي احدى معجزات النبي يوسف الصديق. و يعني تأويل الحديث اعادة الرواية والحديث إلى أصلها. و كان تأويل الحديث في وجود العلّامة الطباطبائي. أي كان يعيدالروايات التي وردت عن آل بيت رسول اللّه(ص) إلى القرآن، و هذا منتهى الكمال العجيب».[١٧]

نعم لقد كان في روايات اهل بيت الرسالة حقائق و رموز خفية لايصل اليها سوى الفكر الصافي والعقل النيّر، و كان لابدّ من علّامة كالطباطبائي يستطيع بما يملك من سموّ فكري حنيف و عقل كامل نادر أن يكشف الستارعن رموز تلك الروايات وأسرارها، و يبين بالتالي الحقائق القرآنية.

كما شرح علاوة على ذلك المواضيع والمسائل الولائية عن طريق البحث في الأخبار والروايات التي يؤيّدها علماء السنّة و وردت في أحاديثهم. و بيّن بأسلوب استدلالي الولاية الكلية والعامة لمولى الموحدين الامام علي بن أبي طالب و سائرالمعصومين ـ عليهم السلام ـ كماجرى بحث علمي دقيق حول سبب نزول الآيات و وردت نظريات مدروسة، فصلت بين الجري والتطبيق و بين أسباب النزول مع تنقيح و تصحيح الروايات المتعلقة بهذه الأسباب. و هوأسلوب لم يسبق إليه خلال تاريخ تفسيرالقرآن؛ ولانبالغ إذا ادعينا انه يمكن أن يشاهد في الميزان اكثرالأبحاث أصولية في شأن نزول آيات كتاب اللّه وأدقها تنقيحاً و تحقيقاً.

لقد تمّت الاستفادة في الناحية الروائية للميزان من مصادر عديدة أهمها بناء على كثرة الرجوع إليها:

الف. الدرالمنثور في التفسير بالمأثور و صحيح البخاري و صحيح مسلم و شعب الايمان والسنن للبيهقي عندالسنّة.

ب. الكافي و تفسير علي بن ابراهيم القمي و تفسير العياشي و تفسيرالبرهان و تهذيب الأحكام ومجمع البيان و معاني الأخبار و عيون أخبار الرضا عندالشيعة.

و بصورة عامة فقد تمت دراسة المسائل في اطارالأبحاث الروائية للميزان كالناحية القرآنية أيضاً في أبعادها المختلفة و بنظرة تحليلية. وأدّي الموضوع حقه كاملاً بدون أيّ ايجاز مخلّ و اطناب مملّ. و كانت النتيجة حل الكثير من المشاكل والغموض وازالتهما؛ و بالتالي تعاظم قدر و منزلة هذا التفسير الشريف بين كبار اهل العلم والفضل.

ج. **الناحية العلمية المستقلة**.كان العلّامة الطباطبائي بعد أن يفسر آية أوعدداً من الآيات ذات الموضوع الواحد، يورد بناء على مقتضى الكلام و حسب الضرورة ابحاثاً علمية مستقلة في الميزان، و يبادر إلى شرح و بيان جوانب كلّ بحث في نهاية الدقة والايجاز و يخرج بنتيجة معقولة و منطقية تحل الكثير من المشاكل العلمية والثقافية. و هو يورد هذه الأبحاث بشكل منفرد و تحت عناوين خاصة، علمية و فلسفية و عقلية و تاريخية و اجتماعية و اخلاقية و غيرها لكيلا تتداخل المقولات التفسيرية بالمسائل العلمية ولاتفرض النظريات العلمية على دلائل الآيات، ولايميل التفسير إلى التطبيق بصورة عفوية، ولايفسر بالرأي، و بصورة عامة لاتتعرض الحقائق القرآنية للتحريف. و هذا الأسلوب المستحسن الذي اتبع في الناحيتين القرآنية والروائية بدقة أيضاً، ينم عن تقوى هذا المفسر الالهي الكبير و كماله النفسي و صفائه الروحي. وبناء على هذا لابد من أن نأخذ بنظر الاعتبار أنه لم يكن هدف العلّامة من ايراد مثل هذه الأبحاث تفسير الآيات و شرحها على أساس القواعد العلمية. أوبعبارة أخرى لم يكن يريد أن يفرض نتائج البحوث العلمية ـ باعتبارها حقيقة مسلماً بها ـ على مضمون الآيات و إنّما كان علاوة على تفسير الآيات البينات بالأسلوب القرآني يبين مختلف المسائل العلمية والعقلية و الفلسفية و غيرها باعتبارها تأييداً للوحي والحقائق القرآنية أو لأن هذه العلوم ذات قدر و منزلة و اعتبار خاص. و

هذا نفس أسلوب الأستاذ الفلسفي الذي جمع فيه بين المعارف في القرآن الكريم و بين البرهان والعرفان. والذي يمكن أن نطلق عليه اسم «الحكمة السامية» و يعتبر بحدذاته أحدالخصائص المنيرة في الميزان.

و علاوة على ذلك فإنّ لناحية الميزان العلمية خصائص بارزة أخرى ايضاً، أهمها: الفصل بين حدود المسائل العلمية و وظائفها. فحدود كل بحث في هذا التفسير معينة و مميزة تماماً تبعاً لمدى موضوعيته العلميّة كما دارالحديث في كلّ نوع من العلوم عن الأحكام والمواضيع الخاصة، بهذا العلم فقط بشكل لايمكن أن يشاهد فيه أثر للتداخل بين المسائل و المزج بين الأبحاث، فليس في مجال الأبحاث الكلامية مثلاً أثرلعلم الأخلاق، و ليس للتاريخ دور في البحوث الاجتماعية، ولافي الحديث عن العرفان، مكان للفلسفة، فقد روعيت حدود كل بحث بدقة تبعاً لقول القائل «لكلّ مقام مقال»[١٨] دون تداخل بين الأبحاث والموضوعات المختلفة، كما استغني في بعض المواضع عن ايراد بحوث خارجة عن حيّزالتفسير واكتفي بالاسارة إلى موضوع مثل هذه الأبحاث فقط. كما حدث أحياناً أن أحيل البحث في المسائل الفقهية والأصولية إلى المصادر الخاصة بهذين العلمين.[١٩]

و من الخصائص الأخرى لهذا التفسير، دراسة الآراء و الأفكار في المدارس المختلفة و مطابقتها للقانون الاسلامي المقدس. وقد روعيت هذه الخصيصة في جميع نواح الميزان العلمية، ولاسيما في الناحيتين الفلسفية والاجتماعية حيث تبدو واضحة ولها أهمية بالغة. أمّا أسلوب العلامة في هذا المجال فيعتمد على ايراد مختلف النظريات التي تتعلق بموضوع خاص ثم العمل على شرحها و نقدها بنظرة صائبة و تحقيقية و بيان مواضع النفي والاثبات أوالردّ والتصويب فيها، ثم يجيب اجابة دقيقة و منطقية عن مشاكل المدارس الالحادية والمادية التي أخذت طريقها إلى المجتمعات الاسلامية، ويزل الغموض باسلوب استدلالي عقلي و يكشف عن الحقائق.

فالعلاّمة جعل البرهان والعرفان في الأبحاث الفلسفية عامة في خدمة القرآن، و تصدى في هذا السبيل للدفاع عن حريم الاسلام المقدس و القرآن، بشرح الكثير من حقائق الوجود، فكان يورد الاصول الفلسفية بأسلوب رياضي و يعمد إلى دراستها و شرحها ولايسمح بحال من الأحوال بالاستفادة من المسائل النقلية (العلوم الشرعية). كما يبادر في أبحاث الميزان الاجتماعية، التي تعتبر فريدة من نوعها كمّاً و كيفاً، إلى ايراد نظرات القرآن الكريم حول أصول علم الاجتماع و يعمد إلى دراسة وشرح الآداب الاجتماعية و العلاقات الانسانية و مشاكل المجتمع من مختلف الجوانب.

والخلاصة أنّ الاستاذ العلاّمة الطباطبائي يبادر في جميع نواح الميزان العلمية: القرآنية منها والفلسفية والكلامية والاخلاقية والعرفانية والتاريخية والسياسية والاجتماعية و غيرها إلى دراسة كليات المسائل و جزئياتها بتفكير عميق و نظرة دقيقة، ولايرفع يده عنها ربما يصل إلى النتيجة المطلوبة والمنطقية التي تتفق مع الموازين العلمية الصحيحة، ولايتخطّى أية مسألة بسهولة أبداً.

و على كلّ حال فقد دوّن الميزان بمثل هذا الاسلوب الذي ينم عن دقة نظر علمية لدى المؤلف الكبير وعن تعهده الالهي الخاص وليس له من هدف سوى شرح العلوم و المعارف الالهية والعالم فى رحاب الوجود و هداية الانسان بنور وحي القران الكريم و تعاليمه الضامنة لسعادة البشر.

المصادر والهوامش:

* . المنة: القوة، والكلمة من الاضداد.

١ ـ البيان في تفسير القران ـ الشيخ الطوسي، ج١، ص١.

٢ ـ الميزان في تفسير القرآن ـ العلامه السيد محمد حسين الطباطبائي، ج١، ص٨.

٣ ـ مهر تابان (فارسي) ـ سيد محمد حسين حسيبي طهراني، ص١٢

٤ ـ يادنامهٔ مفسر كبير (فارسي)، مقالة الاستاذ حسن زاده الأملي، ص١١٣.

٥ ـ نفس المصدر، مقالة الاستاذ محمد تقي مصباح، ص ٣٩ ـ ٤٠ ـ و جاء نفس المضمون ولكن مع مزيد من الشرح والتفصيل في «نخستين يادنامهٔ علامه طباطبائي» (فارسي)، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

٦ ـ نفس المصدر، مقاله الاستاذ ابراهيم الامين، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

٧ ـ سوره النحل (١٦)، الآية ٨٩.

٨ ـ سوره البقره (٢)، الآيه ١٨٥.

٩ ـ سوره النساء (٤)، الآيه ١٧٤.

١٠ ـ كنز العمال في سنن الاقوال والافعال ـ المتقي الهندي، ج١، ص٦١٩، الحديث رقم ٢٨٦١.

١١ ـ شرح نهج البلاغه ـ ابن ابي الحديد، ج٨، ص ٢٨٧، و نهج البلاغة ـ تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص١٩٢.

١٢ ـ يرجى الرجوع الى: الميزان في تفسير القران، ج١، ص١٢.

١٣ ـ البيان في تفسير القران ـ الشيخ الطوسي، ج١، ص٣، ورد هذا الحديث بروايات مختلفة أيضاً:

ـ «من قال في القران برأيه فأصاب فقد أخطأ» الرسول الاكرم(ص): كنزالعمال ـ

المتقي الهندي، ج٢، ص١٦، رقم ٢١٥٧] ـ و بكلمة «تكلّم» بدلا من «قال»: بحار الانوار ـ العلامة المجلسي، ج٩٢، ص١١١ نقلاً عن «ميزان الحكمة ـ محمدي ري شهري، ج٨، ص٩٥».

ـ «من فسّرالقرآن برأيه فأصاب لم يؤجرفإن أخطأ كان اثمه عليه» [الامام الصادق(ع): الحكم الزاهرة ـ علي رضا الصابري اليزدي، ص١٢٧] ـ و باللفظ «وإن» بدلا من «فإن»: ميزان الحكمة، ج٨، ص٩٥.

ـ وفي حديث: «**ومن فسّرالقرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب**» [الرسول الاكرم(ص): مستدرك سفينة البحار ـ الشيخ علي نمازي الشاهرودي، ج٨، ص١٩٦].

ـ قال اللّه جل جلاله: «ما امن بي من فسّر برأيه كلامي...» [الرسول الاكرم(ص): نفس المصدر: وكلمة الله ـ السيد حسن الشيرازي، ص٨٧، و ميزان الحكمة، ج٨، ص٩٥].

ـ «من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار» [الرسول الاكرم(ص): كنز العمال، ج٢، ص١٦، رقم ٢٩٥٨] ـ و بإضافة كلمة «برأيه» بعد «القران»: الحكم الزاهرة، ص١٢٧.

ـ «من قال في القرآن بغير ماعلم جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار» [الرسول الاكرم(ص): ميزان الحكمة، ج٨، ص٩٥، والحكم الزاهرة، ص١٢٧].

إنّ هذه الروايات تؤكد بصورة عامة على نبذالتفسير بالرأي و هي تترقب عواقب و خيمة و عقاباً أليماً لأمثال هؤلاء المفسرين بحيث تعتبر صاحب الرأي الصحيح غيرمأجور في ذلك، والأهمّ من هذا أنّ من فسّر برأيه وأصاب فقد أخطا. و كلّ هذا التأكيد لكيلا يحلّ التأويل محلّ التفسير وألّاتفرض نتائج الأبحاث العلمية على مضمون الآيات، ولايستبدل الجري والتطبيق بالتفسير ولكيلا تتعرض بالحقائق والمعاني القرآنية، السامية بالتالي إلى التحريف.

١٤ ـ نخستين يادنامهٔ علامه طباطبائي (فارسي)، ص٢٠٠.

١٥ ـ يادنامهٔ مفسر كبير (فارسي)، ص٣٢.

١٦ ـ مهر تابان، (فارسي)، ص٤٣.

١٧ ـ روزنامهٔ كيهان (جريدة فارسية)، بتاريخ ١٣٦٠/٩/٥.

١٨ ـ غررالحكم و دررالكلم ـ عبدالواحد بن محمد التميمي الآمدي، شرح محقق الخوانساري ج٥، ص١٦.

١٩ ـ يرجى الرجوع الى: الميزان في تفسيرالقرآن، ج٢، ص٢٢١.